﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبْلَها

قسوةُ قلوبِ الكافرين منعتْهُم منَ الانتفاع

لمّا أخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه قد أَرْسَلَ قبْلَه رُسُلًا إلى أقوامٍ بلغوا في القسوة إلى أن أُخذوا بالشِّدّة في أنفسِهم وأموالِهم، ولكنّ كثيرًا منَ النّاس يصلون إلى حالٍ منَ الشّرك والفُجور لا يُغيِّرُها بأسٌ ولا يحوِّلها بؤسٌ، فلا تُجدي معهم العبرُ والمواعظُ، ولا تُؤثِّرُ فيهم صروفُ الدَّهر وغِيَرُهُ؛ بيَّن تعالى بعد ذلك أنَّ تلك الأممَ لم تَعتبر بما أصابَها من شدائدَ، فقال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَأۡسُنَا﴾: (البأس والبؤس) أصلٌ واحد يدلُّ على الشِّدَّة، البَأْسُ: العذابُ، والشدَّةُ في الحرب، ويُستعملُ البأسُ والبأساءُ في النّكاية، نحوَ: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾[2]، وقولِه تعالى: ﴿جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ معناه نزولُ العذاب[3].

2) ﴿قَسَتۡ﴾: القاف والسين والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على شدَّة وصلابةٍ، من ذلك الحجرِ القاسي، والقسوةُ: غِلظُ القلب وشدَّته، يقال: أقْساهُ الذّنْبُ، وهي من قسوة الحجر[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: صلُبتْ وغلُظتْ[5].

3) ﴿وَزَيَّنَ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينِه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/533، والمراغي، تفسير المراغي: 7/124، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس)، والراغب، المفردات: (بؤس).
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(4) الجوهري، الصّحاح: (قسا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي)، والراغب، المفردات: (قسو).
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.

فالزَّينُ نقيضُ الشَّين، يقال: زيَّنتُ الشَّيءَ تزيينًا[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ "أي: أغواهُم بالتَّصميم على الكفر والاستمرارِ على المعاصي"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قسوةُ القلوبِ وتزيينُ الشّيطانِ مانعٌ للمشركين مـنَ الـتّـضـرّع والإيمان

يذكر الله تعالى من تمام إخبار النَّبيِّ ﷺ عن شأن أولئك الأقوام بأنَّهم تركوا التَّضَرُّعَ، فوبَّخهم، إذ لم يتضرَّعوا لله خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدِّمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره، لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة، أو أشدَّ قسوة، فلم تؤثِّر فيهم النُّذر، وزيَّن لهم الشَّيطان ما هم عليه من الشِّرك والفجور[3]، "وهذا عتاب لهم على ترك الدُّعاء في كلِّ الأحوال حتَّى عند نزول العذاب بهم لشدَّة تمرُّدهم وغلوِّهم في الكفر"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرفِ الفاءِ، في قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ﴾:

بـيـان أنَّ إعـراضَـهـم عـنِ الـتَّـضـرُّع، كان سببًا في الإنكارِ عليهم

لمّا أصابهم الله تعالى بالبأساء والضَّرّاء رجاءَ إظهار عُبوديَّتهم لله تعالى بدعائِه واللُّجوءِ إليه، فإذ لم يُظهروا تلك الاستكانةَ والعبوديَّةَ لله تعالى أنكر عليهم ذلك مبيِّنًا أنَّه بسبب قسوةِ قلوبهم، وفي ذلك قال البِقاعيّ: "ولما لم يقعْ منهم ما أوجبتِ الحالُ رجاءَه؛ تسبّب عنه الإنكارُ عليهم"[5].

دلالة حرفِ (لولا) بين النّفي والتّحضيض:

حثُّ المعاصرين على الاعتبار، تـعـريـضًـا بهم، وتوبيخًا للسَّابقين

ذهب فريق منَ المفسِّرين إلى أنَّ (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ للنَّفي، أي: إنَّهم ما خَشعوا، ولا تضرَّعوا وقتَ البأس،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/124.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/114.

فقد "نفى التَّضرُّعَ، كأنَّه قيل: فلم يتضرَّعوا إذ جاءهم بأسُنا، ولكنَّه جاء بـ (لولا) ليفيدَ أنَّه لم يكن لهم عذرٌ في ترك التَّضرُّع إلّا عنادُهم وقسوةُ قلوبهم، وإعجابُهم بأعمالهم التي زيَّنها الشَّيطانُ لهم"[1].

وذهب فريقٌ إلى أنَّها للحثِّ والتَّحضيض بمعنى: (هلّا)، لأنَّه دخل على الماضي لإفادة التّنديم والتَّوبيخ[2]، فهو على جهة المعاتَبةِ[3]، "والتَّوبيخُ إنّما يليقُ بالحاضرين دون المُنقرضين لفوات المقصودِ"[4].

وذهب فريقٌ إلى أنَّها مع ذلك تدلُّ على التَّمنّي، "كأنَّه قيل: لمَ لمْ يتضرَّعوا؟ ولَيْتهم تضرَّعوا، وكانوا متمكِّنين منه، غيرَ ممنوعين"[5]، وفي بيان كيفيَّة التَّمنّي في هذا السّياق يقول أبو زهرة: "(لولا) هنا للنَّفي مع تمنّي الوجود، فهي لنفي تضرُّعهم مع تمنّي أن يكونوا قد تضرَّعوا، والتَّمنّي هنا معناه: يَنبغي، كأنَّ المعنى هكذا: لم يتضرَّعوا، وكان يَنبغي أن يكونَ البأسُ الشَّديدُ مُؤدّيًا إلى ضراعتهم؛ لأنَّه يُشعرهم بضَعفهم أمام قدرةِ الله تعالى"[6].

فتكونُ (لولا) قد أفادت تلك المعانيَ منَ النَّفي والتَّمنّي والحثِّ والتَّوبيخ شاملةً المنقرضين والمعاصرين، مُسفرةً عن متانة الإعجاز وبلاغة التَّعبير في لغة القرآن.

دلالةُ تقديم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ على ﴿تَضَرَّعُواْ﴾:

تصويرُ العنادِ المقترنِ بالغباوةِ، وعاقبتِه الوخيمةِ

قدَّم الظَّرفَ وأصلُ الكلام في غير النَّظم القرآني: (فلولا تضرَّعوا إذ جاءهم بأسنا)، وهذا التَّقديمُ "للاهتمام بمضمون

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/23، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79، والبقاعي، نظم الدرر: 7/114.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/85، والسّمين، الدر المصون: 4/633، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/147.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/514.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/85.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2498، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

جملته، وأنَّه زمنٌ يحقُّ أن يكون باعثًا على الإسراع بالتَّضرّع ممّا حصل فيه منَ البأس"[1]؛ فإنَّ مجيءَ البأسِ سببٌ عظيمٌ في التَّضرُّع، فقُدِّم ذكرُ مجيءِ البأسِ لزيادةِ تحسُّرِ المخاطَبين، وبيانِ فظاعة وشناعةِ ما وقعت به الأممُ السّابقةُ منَ الغباوة والعِناد.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾:

إسنادُ المجيء إلى البأس مجاز، والمرادُ حدوثُه وحصولُه

أَخبر عن مجيء البأس، والبأسُ لا يجيءُ، فالمجيءُ "مُستعارٌ للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيهًا لحدوث الشَّيء بوصول القادم من مكان آخرَ بتنقُّل الخَطوات"[2]، إذ هو من صفات الأحياء، وإنَّما أخبر بذلك مجازًا، فـ "إسنادُ المجيء إلى البأس مجازٌ عن وصوله إليهم، والمرادُ أوائلُ البأس وعلاماتُه"[3].

نكتةُ استعمال (البأس) دون (العقوبةِ) أو (العذابِ):

أخصُّ منَ العذابِ

العذابُ والعقابُ يدلّان على الجزاء على وجه العُموم، ولكنَّ البأسَ هو الجزاءُ الشَّديدُ، فهو أخصُّ في الدِّلالة، "والمرادُ به هنا: الشّدّةُ على العدوّ وغلبتُه"[4]، وكذلك فهو نزولُ العذاب[5].

دلالةُ إضافةِ (البأس) إلى ضمير العظَمةِ في ﴿بَأۡسُنَا﴾:

بأسُ الله شديدٌ يتناسبُ مع عظمتِه ﷻ

قولُه جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أضاف البأسَ إلى نون المتكلِّمين الدّالِّ على التَّعظيم إشارة إلى شدَّة البأس وقوَّته، فهو بأسُ الله لا بأس سواه، وقد أراده لتلك الأمم كما أراد لهم التَّضرُّع.

دلالةُ تكرارِ لفظِ ﴿تَضَرَّعُواْ﴾:

تكرَّر لفظُ التَّضرُّع مرَّتين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾؛ للتَّأكيد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/514، وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.

بأنَّ التَّكبُّرَ عنِ التَّضرُّع هو سببُ النِّقمة منهم، فاستكبارُهم عنِ التَّضرُّع للّه تعالى دليلُ كِبْرهم وكفرِهم، وفيه بيانُ استحقاقهم ما نالوا منَ البأس الشَّديدِ.

الامتناع عن التَّضرُّع، سببٌ في استحقاق العذابِ وشدّته

بلاغةُ استعمال حرفِ الاستدراك ﴿وَلَٰكِن﴾ معطوفًا:

عقَّب بحرفِ الاستدراك ﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عطفًا على عزوفهم عنِ التَّضرُّع، ببيان نقيضِه المسبِّبِ له، فهو "استدراكٌ عمّا قبْلَه، أي: فلم يتضرَّعوا إليه تعالى برقَّةِ القلب والخضوعِ مع تحقُّق ما يدْعوهم إليه، ولكنْ ظهر منهم نقيضُه حيث قستْ قلوبُهم"[1]، وعبَّرتِ الآيةُ عن معنيَيْن متناقضَيْن، وعليه فإنَّ "وقوعَ ﴿وَلَٰكِن﴾ هنا حسنٌ؛ لأنَّ المعنى انتفاءُ التَّذلُّل عند مجيء البأس، ووجودُ القسوة الدّالةِ على العتوِّ والتَّعزُّز، فوقعتْ ﴿وَلَٰكِن﴾ بين ضِدَّين، وهما: اللّينُ والقسوةُ"[2]؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ "مُشْعِرٌ باللّين والسُّهولة"[3]، وعند البِقاعيّ أفاد الاستدراكُ نفيَ لازمه، "ولمّا كان معنى الإنكار أنَّهم ما تضرّعوا؛ قال: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فلم يذكروا ربَّهم أصلًا"[4]؛ لأنَّ من قسا قلبُه انتفى عنه الخشوعُ المتحصِّل بذكر اللّه تعالى؛ "لأنَّ التَّضرُّع ينشأُ عن لين القلب، فكان نفيُه المُفادُ بحرف التَّوبيخ ناشئًا عن ضدِّ اللّين وهو القساوةُ، فعطفَ بـ (لكن)"[5].

ذو القلب القاسي لا يتضرَّع، والمتضرِّع لا يُوصفَ بالقاسي

والخلاصة: أنَّ فائدةَ الاستدراك الإشارةُ إلى أنَّ الضَّراعةَ وقسوةَ القلوب لا يجتمعان؛ لأنَّ القسوةَ غِلظٌ في النُّفوس والطِّباع،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/514.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/633، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/148.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/114.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

وإنَّ بعضَ النُّفوس لتَقسو حتَّى تكونَ كالحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ والضَّراعةُ رقَّةٌ في القلب ورأفةٌ في النَّفس، فأنَّى يجتمعان؟[1].

سرُّ استعمالِ لفظِ القَسوة دونَ غيره:

أخطرُ أمراضِ المجتمعِ القسوةُ، وتجّنبها أمانٌ ونجاة

الكفرُ والختمُ والقسوةُ تشتركُ في معاني الانتفاء والسَّلب والعدم؛ فالكفرُ: هو انتفاءُ الاستجابة لآيات الله ودعوتِه، والختمُ: إنَّما هو بسبب عدمِ الانتفاعِ بآيات الله تعالى، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾ معناه: "وطبعَ على قلوبهم، فلم يَعقِلوا الهُدى"[2]، وعدمُ اللُّجوء إلى الله تعالى في وقت الشِّدَّة إنَّما هو بسبب القسوةِ، فعبَّر بالقسوة لدلالتِه على نقيض الخشوع واللّين، فالتَّعبيرُ بالقسوة أنسبُ في عدم الاستجابة لما يأتيهم منَ البأساء والضَّرّاء، ويصدِّقُه أنَّ أهلَ الكتاب يؤمنون بأصول الدّين العامَّةِ كالتَّوحيد والبعثِ والجنَّةِ والنّارِ، ويتَّبعون الشَّريعةَ في غالب أمورهم فلم يناسبْ أن يصفَهم بالختم والطَّبع، لما لديهم من بقيَّة إيمانٍ بالله تعالى، ولكنْ كان في قلوبهم قسوةٌ لما فيهم من حبِّ الدُّنيا وغيرِه منَ الاستكبار عنِ الحقِّ، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾؛ لأنَّ قلوبَهم لم تتأثَّرْ بآيات الله، وهم أهلُ إيمانٍ به.

بلاغة الاستعارة، في لفظ ﴿قَسَتۡ﴾:

القسوةُ تعني انتفاء تأثُّر قلوبِهم بأسباب الاتِّعاظِ

القسوةُ تدلُّ على الشِّدَّة والصَّلابة من قسوة الحجر، فاستُعيرت تلك القسوةُ للقلب لانتفاء تأثُّره بطروِّ البأس، فلمّا لم يتضرَّعوا إلى الله تعالى في زمان البأساء والضَّرّاء؛ كانت قلوبُهم كالحجر في صلابته، "والمعنى: ولكنِ اعتراهم ما في خِلْقتهم منَ المكابرة وعدمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2498 - 2499.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536.

الرجوع عنِ الباطل، كأنّ قلوبَهم لا تتأثَّرُ، فشُبِّهت بالشّيء القاسي، والقسوةُ: الصلابةُ"[1]، وفائدةُ وصْفِ القلوب بالقسوة: أنَّها تمثيلٌ "في بُعدِه عنِ الاعتبار وقَبول الحقِّ"[2]، فلمّا جَمدتْ قلوبُهم عنِ التأثُّر بآثار البأساء والضَّرّاء، ولم يَنسبوا ذلك للإله الحقِّ؛ كانت كصلابة الحجَر في انتفاءِ التأثُّر بما يطرأُ عليه.

دلالةُ المضي في ﴿قَسَتْ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على القطْع بوجودِ القسوة، وإشارةً إلى بقائها مع طروِّ البأس، فهي قسوةٌ مستمرَّةٌ، فقولُه تعالى: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، "أي: استمرَّتْ على ما هي عليه منَ القساوة أوِ ازدادَتْ قساوةً"[3]؛ لأنَّهم ثبتوا على الكفر، فقلوبُهم" صلُبتْ، وغلُظتْ، وهي عبارةٌ عنِ الكفر، والإصرارِ على المعاصي"[4]، والقسوةُ أمرٌ تدريجيٌّ، لكنَّه عبَّر عنها بالماضي؛ لبيانِ أنَّها إنْ وقعت في القلبِ؛ استقرَّتْ، وهذا هو خطرُها وعظيمُ شرِّها.

تنبيهُ المؤمنين إلى عظيمِ خَطرِ القَسوةِ

بلاغةُ عطف ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، على الجملة السّابقة:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5]، وفائدةُ عطف التَّزيين على القسوة الدَّلالةُ على استمرار الشَّيطان بالتَّزيين، والمرادُ أنَّه "أغواهم بالتَّصميم على الكفر والاستمرارِ على المعاصي"[6].

الشَّيطان مستمرٌّ في التَّزيين، حفاظًا منه على قسوة القلوب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.
(2) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/96.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133، والجمل، الفتوحات الإلهية: 2/351، والآلوسي، روح المعاني: 4/143.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/425.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/327.
(6) القنّوجي، فتح البيان: 4/141.

فالتَّزيين له مقامان: مقامٌ ابتدائيّ، ومقامٌ استمراريّ، والمقصودُ هنا: الاستمرارُ، إذ التَّزيين جاء عَقِب قسوة القلب، فكان تزيينُ الشَّيطان مستمرًّا للحفاظ على القسوة، التي أبعدتْهم عنِ الاتِّعاظ، وفي ذلك تحذيرٌ بليغٌ أن يقع الإنسانُ في شَرَك المزّين فاسقًا كان أو كافرًا، أمّا كيفيةُ تزيين الشَّيطان لهم، فهي "بأن يوحى إليهم بأنَّ ما هم عليه من كفرٍ وشِركٍ وعصيانٍ هو عينُ الصَّواب، وأنَّ ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيرًا؛ لأنَّه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم"[1].

نكتةُ استعمال ﴿وَزَيَّنَ﴾ دون مرادفاتها:

قولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ آثر التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَزَيَّنَ﴾ دون حسَّن أو غيرِه، فلم يقل: "(حسَّن لهم الشَّيطان)، كما يجري على الألسنة، فلانٌ يُحَسِّن القبيحَ؛ لأنَّ القبيح لا ينقلبُ حسنًا، والسَّيِّئَ لا ينقلبُ، ولكنَّ السَّيِّئَ أو القبيحَ بتمويهاتٍ وتزييناتٍ يُظنُّ معها أنَّه حسنٌ، وما هو إلّا تمويهٌ باطلٌ"[2]، فالزينةُ أمرٌ ظاهرٌ زاهرٌ، يراه ضعيفُ العقلِ زاهيًا، فيستمرُّ فيه ظنًّا منه أنَّه يُحسِن صنعًا.

الـزّيـنـةُ مظهر خـارجـيّ زائـف، وهـي لا تـؤثّـر إلّا في ضِـعـافِ العقول

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور على المسنَدِ إليه:

في قولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المسنَد إليه، فلم يقل: (وزيّن الشّيطان لهم)؛ تخصيصًا لهم بذلك التَّزيين؛ لأنَّه لا يقدرُ على أن يزيِّن للمؤمنين، لذلك كان التَّزيينُ خاصًّا بهم، فقدَّم الجارَّ والمجرورَ لذلك، وفي ذلك تزكيةٌ للمؤمنين ببيان ضَعفِ الشَّيطان أن يُزيِّن لهم أعمالَ الباطلِ، وهو ما يُبرهنُ على أنَّهم هم أصحابُ العقلِ السَّويِّ.

المـؤمـنـون أقـوى مـن الـوقـوع في حـبـال زيـنـةِ الشَّيطان

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/74.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2499.

معنى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عرَّف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ باللّام الدّالَّةِ على الاستغراق، فالشَّيطانُ وصفٌ يدخل فيه شياطينُ الإنس والجنّ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112]، فكلُّ من يُزيِّن للنّاسِ أعمالَهم الضّالَّةَ فهو شيطانٌ، وإنَّما عبَّر بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إشارةً إلى الصّفة وهي الإبعادُ والطَّردُ عنِ الحقِّ، وهي مناسبةٌ للسّياق إذِ الشَّيطانُ يزيِّن المعاصيَ ليُبعدَ النّاسَ عن ربِّهم ﷻ، فيتكاثرُ المطرودون.

كـلُّ داعٍ إلى الباطلِ، فهو شيطانٌ يجبُ الحذرُ منه

دلالة ﴿مَا﴾، في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

يحتملُ في ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ﴾ "أن تكونَ موصولةً اسميَّة أي: الذي كانوا يعملونَه، وأن تكونَ مصدريَّةً، أي: زَيَّن لهم عملَهم، كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾"[1]، ويكونُ المعنى – لو اعتُبر أنَّها مصدريَّةٌ – : أعمالَهم، فالمصدر المؤوَّل ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ العمل ذاتَه مُزيَّن من غير تعلُّقه بالأعمال المفردةِ، أمّا لو اعتُبر أنَّها اسمٌ موصولٌ، فإنَّه يدلُّ على تزيين عملٍ مفردٍ بعيْنه، والمرادُ به هنا الاستكبارُ عنِ التَّضرُّع للّه تعالى عند نزول العذاب.

تـراوح المعنى بين المصدريّة والموصوليّة

دلالةُ استعمالِ فعْلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلون) أو (يصنعون):

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيّ لفظَ العملِ، دون الصُّنع والفِعلِ؛ لأنَّ الصُّنعَ ترتيبُ العمل وإحكامُه، وتَقَدُّمُ العلمِ به بما يوصلُ إلى المراد منه؛ ولذلك قيل للنَّجّار: صانعٌ، ولا يقال للتّاجر: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجارَ قد سبق علمُه بما يريد عملَه من سريرٍ أو بابٍ، ويعلمُ الأسبابَ التي توصل إلى ذلك، والتّاجرُ لا يعلمُ إذا اتَّجر أنَّه يصلُ الى ما يريده

التعبير بالعمل أنسب لعامَّة النَّاسِ

(1) السّمين، الدر المصون: 4/634، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/148، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/14.

منَ الرِّبح، فالعملُ لا يقتضي العلمَ بما يعملُ له، والصُّنعُ يدلُّ على الجودة[1]، فهو أخصُّ منَ العمل، فحيثما ذُكر كافَّتُهم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وحيثما ذُكر خاصّتُهم وحفظةُ العلم ذُكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2]. وأمّا الفعلُ؛ فهو عبارةٌ عمّا وُجد في حال كان قبْلَها مقدورًا سواءٌ أكان عن سبب أم لا[3]. وفي الآية استُعمل ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّه حديثٌ عن عامَّة النّاس، فالتَّعبيرُ به أنسبُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135 - 136.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/392، البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 2/134.
(3) العسكريّ، الفروق اللغّويّة، ص: 133 - 134.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»